صيغة فُعَال

ليست جمعاً

اختلاف الأقوال فيها

وان بين معانيها نسباً ألزمها بناء واحداً

للأديب

جبران يوسف النحاس

مقال نشر تباعا في « الرسالة المخلصية »
سنة ١٩٤٧

فهرس

صفحة

صفحة

صيغة فعال

كان لامامنا الشيخ ابرهيم اليـازجي شغف بالبحث في مفردات اللغة ، يتوسم صورها ، وما اكتسته معانيها من تقاطيع الصيغ ، وما خازمها من مخارج الحروف. وأدباؤنا في هذه الأيام[1] يقيمون عيداً لمرور مئة سنة على مولده . فرأيت ان يكون نصيبي من هذه الذكرى ان أقتفي في البحث أثر خطاه . فان قعد بي الضعف دون مـداه ، فان لي في القصور عذراً . والا فحسبي اني توخيت من وراء الغيب رضاه . فأقول :

***

كثيراً ما ترى في ايماء المتحدّث ونبرات صوتهِ وأسارير وجههِ ما يجـاري معانيه في الدلالة على الانبساط والغضب والجزع والسكون وما أشبه .

وكذلك نجد من الصيَغ العربية في قِصَرها ومطّها وحركاتها وجَرْس حروفها من المشاركة في معانيها . وليس ذلك مقصوراً على ما أثبتوه في ابواب الاشتقاق بل تعدّاه الى غيره . ولعل الكثير مما يحملونه على الشذوذ تراه ، اذا تدبّرته من بعض الوجوه ، غير خارج عن القياس .

من ذلك مثلاً كلمات جاءت على « فُعال » بالضم عدّوها من شواذّ الجمع . ولعلّ فيها نظراً يُنحّيها عن الشذوذ . ولذا تضاربت آراؤهم في عددها وفي تسميتها جموعاً أو اسماء جمع .

***

---

(١) مارس سنة ١٩٤٧.

قال ابن خالوَيه : « ليس في كلام العرب شيء جُمِع على فُعال إلاَّ نحو عشرة أحرف » . وذكر تسعة وهي : عُراق ، ورُخال ، ورُباب ، وتُؤام ، وفُرار ، ونُذال ، ورُذال ، وثُناء ، وبُساط [1] .

وقيّدها غيرهُ بثمانية ونظمها في قولهِ :

هيَ جمعٌ وهيَ في الوزن فُعالُ ما سمعنا كلماً غيرَ ثمانٍ
وعُرامٌ ، وعُراقٌ ، ورُخالُ فرُبابٌ ، وفرارٌ ، وتؤامٌ ،
جمع بُسطٍ ، هكذا في ما يقالُ وظُؤارٌ جمع ظِئرٍ ، وبُساطٌ ،

وقال ابن الأعرابي في شرح المفضليات (ص ٢٦٦) : « لم يأتِ جمع على فُعال إلاَّ ستة أحرف ، قولهم : فرير وفُرار ، ورِخْل ورُخال ، وظِئر وظُؤار ، ورُبّي ورُباب ، وتَوأم وتؤام ، وعَرق وعُراق » اهـ .

ومما يُتنبهُ له ان مفرداتها ليست على بناء واحد لتكون هذه الصيغة جمعاً لذلك البناء .

وقال ابن قتيبة في باب فُعال وفَعيل من أدب الكاتب : « قال الفرَّاء : الفُرار ولد البقرة الوحشية يقال له فَرير وفُرار . وكان غيرهُ يَزعُمُ أن

---

(١) جعلوا مفرداتها العَرْق العظم أُخذ عنه اللحم . — الرِخْل الانثى من أولاد الضأن . — الرُبَّى الشاة الحديثة النتاج . — التوأم المولود مع غيره في بطن . — الفرير ولد النعجة . — النذيل والنَذْل من الناس الذي تزدريه . قالوا نذيل ونذال مثل فرير وفُرار . — الرَذْل الرذيل — تقول جاءوا ثُناء أي اثنين اثنين . — البُسْط الناقة تخلى مع ولدها لا يمنع منها .

فُراراً جمع فرير. قال ابو عبيدة لم يأتِ على فُعالٍ شيء من الجمع إلا أحرف هذا أحدُها. قال ومنها تَوْأم وتُوَام، وشاة رُبَّى، وغنم رُباب، وظِئْر وظُؤَار، وعَرق وعُراق، ورِخل ورُخال، وفَرير وفُرار. قال: ولا نظير لهذه الأحرف» اهـ.

وفي حرف (عرق) من اللسان (ص ١١٥) نقل ابن منظور عن ابن السكيت الأحرف الستة هذه وقولَهُ لا نظير لها. ثم أورد ستة أحرف أخرى عن ابن برّي هي: رُذال، وتُدال، وبُساط، وثُناء، وظُهار، وبُراء. وقال: «فصارت الجملة اثني عشر حرفاً» اهـ.

وفي شرح الدرّة زاد الخفاجي ألفاظاً، منها: أُناس، وطُوال، وظُباء، وكُباب، ورُعاء، ومُلاء، وقُماش، وسُباح وسُحاح، وأُهاث، حتى أوصلها إلى ثلاثة وعشرين.

ولو تقصَّينا هذا المعنى في أسفار اللغة لألفَينا غير ما تقدَّم، مما يفيد الكثرة وهو على فُعال.

٢

وليس اختلافهم في عددها دون اختلافهم في جعلها جموع تكسير أو أسماء جمع.

قال الزمخشري انها ليست تكسيراً. وعبارته في المفصَّل: «يقع الاسم على الجميع لم يكسَّر عليه واحدُهُ. وذلك نحو رَكْب، وسَفْر، وأَدَم،

---

(١) الظُّهار الجماعة.

وعَمَد ، وحَلَق ، وخَدَم ، وجامِل ، وباقِر ، وَسَراة ، وفُرْهة ، وضأن ، وغَزِيّ ، وتُؤام ، ورُخال » اه.

فعدَّ بين أسماء الجمع ما كان فُعالاً بالضم نحو تُؤام ورُخال ولم يخالفهُ ابن يعيش .

وقد أوضح ذلك في الكشاف (١/٥١٤) عند تفسير قولهِ : « فانبجسَت منه اثنتا عشرَة عيناً قد عَلِم كلُّ أُناسٍ مشربهم » . قال : « والأُناس اسم جمع غير تكسير نحو رُخال وثُناء وتُؤام وأخواتٍ لها . ويجوز ان يقال إن الأصل الكسر والتكسير ، والضمة بدل من الكسرة ، كما أُبدِلَت في نحو سُكارَى وغُيارَى من الفتحة » اه.

وقد تعقَّبَهُ ابو حيّان الاندلسي في المحيط (٤/٤٠٨) فلم ينكر قوله انها أسماء جمع بل أيَّدَهُ وإنما أنكر اشارته الى احتمال كونها تكسيراً . وعبارته بعد ان أورد كلام الزمخشري : « لا يجوز ما قال (أي احتمال ان الأصل الكسر والتكسير) لِوَجهين : احدهما انه لم يُنطَق بأُناس بكسر الهمزة فيكون جمع تكسير حتى تكون الضمة بدلاً من الكسرة بخلاف سُكارَى وغُيارَى » .

وملخص الوجه الثاني ان مثل سكارى وغيارى في قول سيبويه جمع . وفي قول المبرّد اسم جمع . ففي كلا القولين ليست ضمتها بدلاً من الفتحة » اه.

***

اما سيبويه ففي تكسير ما عدَّة حروفِهِ اربعة يقول : (٢/١٩٦)

« قالوا رُبَّى ورُباب . حذفوا الألِف وبنوه هذا البناء » كما ألقوا الهاء من جُفْرة فقالوا جِفار . إلاَّ انهم قد ضموا أول ذا كما قالوا ظِئْر وظُؤار ورِخل ورُخال . ولم يكسروا أوّله كما قالوا بِئار وقِداح » اه.

وهذا القول قد يؤخذ منه ان سيبويه يعدّ فُعالاً بالضم تكسيراً لفِعْل بالكسر فالسكون ، وهو ما ينقلونه . غير انه في كلامه على تكسير فِعْل (١٧٩/٢) ذكر فِعالاً بالكسر دون الضم . فصار كلامه الأول وِفاق ما قاله الزمخشري في الكشاف .

ولا سيما ان سيبويه قال أيضاً في باب الاضافة الى الجمع (٨٩/٢) : « تقول في الاضافة الى نَفَر نَفَري ، ورَهط رَهْطيّ ، لأن نَفَر بمنزلة حَجَر لم يكسَّر لهُ واحد وان كان فيهِ معنى الجمع . . . وتقول في الاضافة الى أُناس أُناسيّ لأنه لم يكسَّر له انسان فصار بمنزلة نَفَر » اه.

فقد نصَّ هنا على أُناس ، وهي فُعال ، انها اسم جمع بمنزلة نَفَر ورهط . ولو جاز ان تكون تكسيراً لما تعذّر ان يجعل إنساً مفرداً لها دون احتياج الى ما أصاب بهِ رُبَّى من البتر .

***

وقال الحريري في درَّة الغواص : « وقد جمع رِخْل على رُخال بضم الراء وهو مما جُمع على غير القياس » اه.

وتعقَّبهُ الخفاجي بقوله : « المعروف في صِيَغ الجمع فعال بكسر الفاء . واما بضمها فعلى غير القياس كما ذكر لأنه (أي فُعالاً) من أبنية المصادر والمفردات كنُباح وصُراخ . واذا استعمل بمعنى الجمع اُختُلِفَ فيه فقيل :

هو اسم جمع لا جمع . وقيل انه جمع أصلي ولكن الاصل فيه الكسر . والضم فيه بدل من الكسر » اه.

٣

فقد نص الخفاجي وغيره على اختلافهم ، وليس ثَمَّ في الحقيقة اختلاف لإتفاقهم على ان المعنى يفيد الكثرة ، وانما تضاربت الآراء في تسميته جمعاً أو اسماً للجمع . وعلّة ذلك ما في العربية وخصائص صِيَغها من الاشارة الى الاغراض المقصودة فترى اللفظة تؤدّي الى المعنى من سبيلين : مجرّد احرفها لأصل المعنى ، وصيغها والزوائد لشكلِهِ وزمانِهِ وكيفية حدوثِهِ .

***

في المصادر : ولذا كانت الصيغة الواحدة تشمل صوراً متجانسة من موارد مختلفة ، ومعانٍ متباينة . من ذلك صيغة فُعال بالضم . قالوا انها في المصادر للأصوات كالدُّعاء والصُّراخ . وللأدواء كالزُّكام والصُّداع .

في الاسماء : وانها في الاسماء لما كان محطّماً كالدُّقاق والجُذاذ .

ما استطار : ولو تدبّرت هذه القيود لوجدتها جميعاً داخلة تحت حكم واحد . قال ابن سِيده (مخصص ١٤/١٣٥) : « قال ابو علي : وبالجملة الغالبة فكلُّ ما كان مستطيراً او مرفضاً او متقطّعاً من شيء وبالجملة التي هي أعلى طبقةً من هذه في باب الجنسية والاستحقاق لاسم العموم . فان الفُعال يكون على الاجزاء المتسعة عن البناء كقوله :

« يطيرُ فُضاضاً بينها كلُّ قونَسِ »

البقيّة : قال ابو علي : « وقد جعل سيبويه البقيَّة من الشيء تغلب عليه الفُعالة » اه.

اما المصراع فللنابغة ، والرواية وما قبله وبعده :

فهم يتساقون المنيّة بينهم　　بأيديهم بيضٌ رقاقُ المضاربِ
يطيرُ فُضاضاً بينها كلُّ قونسٍ　　ويتبعها منهم فَراشُ الحواجب
ولا عيبَ فيهم غير أنَّ سيوفهم　　بهنَّ فلولٌ من قِراعِ الكتائبِ

* * *

الدُّقاق : واما قول ابي علي الفارسي هذا فقد أوردَهُ ابن سيده في الكلام على ما كان « نحو الدُّقاق والحُطام والجُذاذ » : وهذه عدَّها مصادر « على مفعول » . غير ان قول الفارسي أعمّ . وكل ما جاء على الفُعال والفُعالة متصل بهذا الوصف وان لم يكن على مفعول . ففي التراب مثل ما في النُّتاف والنُّشار من الدقّة والبعثرة .

٤

وفي مقالتهِ « اللغة والعصر » (البيان ص ٤٥٠) قد تبسَّط الامام اليازجي في ما أشار اليه سيبويه وابو علي الفارسي وأورد على كل معنى امثلة كثيرة :

١ فذكر « فُعالة » للبقيّة من الشيء : كالصُّبابة والأُمامة والخُلالة والخُصاصة والفُضالة .

٢ وما ينبذ : كالأُفاظة والنُّفاثة والنُّخامة والنُّخاعة والنُّفاية .

٣ وما يتساقط : كالنُّشاره والنُّحاتة والبُراية والخراطة والنُّجارة

والبُرادة والحكاكة والقُراضة والقُوارة والقُلامة والسُّقاطة .

٤ وما يستخلص : كالعُصارة والمُكاكة والمُخاخة والخُلاصة والصُّهارة والسُّلافة والنقاوة .

٥ وما يطفو : كالطُّفاوة والطُّفاحة والدُّواية والرُّغاوة .

٦ وما فوق القدر : كالطُّفافة والرُّباوة والعُلاوة والزُّوادة .

٧ وما تحطم وتفرق : قال : « وتحذف الهاء في غير المعنى الأول كالخشار والرُّذال والفُتات والحطام والكُسار والدُّقاق والرُّفات والغُثاء والمُجاج والبُصاق والبُزاق واللُّعاب والرُّضاب والرُّوال » .

٨ وما انتشر : كالغُبار والبُخار والدُّخان .

٩ والضوء والحرّ والرائحة : كالشُّعاع ، والشُّواظ ، والأُوار ، والقُتار » اهـ. ملخصاً .

٥

قلت ان هذه المعاني التي ذكرها الامام ، على تضاربها ، وما قاسه التصريفيون من المصادر على فُعال . وما جعلوه على صيغتها من شواذ الجمع . كل هذه أخوات جمعت بينها لحمة نسب فأبرزتها في صورة واحدة كما سترى :

داخلة تحت حكم واحد .

الغبار أخو الدُّخان : فقد حكى ما في الغُبار من « الاستطارة » الدُّخان والنُّحاس (وهو الدخان لا لهيب فيه) .

الضوء أخو الحرّ: وقس على مثل الدخان « ما انتشر في الفضاء » من الضوء والحرّ وغيرهما كالشُّعاع والسُّعار واللُّهاب والحُضاء. وقس عليه الرُّخاء (للريح اللينة).

الشعاع أخو الرائحة: ومثل الشُعاع في « سطوعه » « ما أفاد رائحة »: كنُفاح الطيب. والسُّعاط (وهو ذكاء الريح وحدتها في الأنف) والصُّوار (للرائحة الطيبة). والبُخار (بمعنى البَخَر) والرُّداع (أثر الطيب).

***

الرائحة والاصوات أخوات: ومثل الرائحة « الاصوات لذيوعها في الفضاء » كدُعاء المستهل، وهُتاف المنادي، وصُراخ الموَجع، ونواح النادبة، وحُداء السائق، وثُغاء الشاء، ويُعار الماعز، وبُغام الظباء، ومُواء الهرّ، وضُباح الثعلب، وعُواء الذيب، ونُباح الكلب، وزُقاء الديك، وصُداح الطائر ونُعاب الغراب، وضُغاب الارنب، وقُباع الخنزير، وخوار الثور، وشُحاج البغل، ونُهاق الحمار، ورُغاء البعير.

***

الاصوات والادواء: ومثل الاصوات والروائح من حيث « الذيوع »، الادواء « لانتشارها وسريانها في الاجسام »: كالسُّعال والنُّحاز (وهو داء يصيب الإبل في رئتها يكون عنه سعال) والزُّكام والسُّهام والهُزال والصُّداع والصُّراع والذُّباح (وجع الحلق). والذُّبال (للقروح) والسُّلال والجُذام والعُطاش والسُّهاف (وهو كالعُطاش لا يروى صاحبه).

وعلماء اللغة قد جعلوا الفُعال قياساً في الادواء والاصوات وهو أعمّ كما ترى .

***

الادواء والعوارض الطبيعية : وما يعتري الجسم والفكر أشبهَ الادواء وإن لم يكن داء ، فغلبت عليه صيغة فُعال : كالعُطاس والنُعاس والسُبات والرُقاد والسُهاد والدُوار والخُمار والهُيام والأُوام واللواح (كلاهما شدة العطش) .

***

ما تناثر وما تطاير : وبديهي ان ما تناثر شبيه بما تطاير . ولكن تغلب زيادة الهاء على فعال ، على توهم اجتماعه شيئاً واحداً : كالنُسالة (لما تساقط من الصوف والريش) والحُسافة (لما تناثر من التمر) والنُخالة .

ما نبذ وطرح وما تناثر : ثم ان ما نبذ وما تناثر أخوان . فقالوا : الكُناسة والنُفاضة والقُشارة والقُشاطة واللُقاطة والقُماشة والجُراشة والحُثالة (لما يسقط من قشر الشعير وغيره) وربما عدلوا عن إلحاق الهاء بما نبذ ان كان غير متناثر : كالتُفال والرُعاف والرُوام (بمعنى اللعاب) والمُخاط والذُنان (رقيق المخاط) .

***

ما رُذل وما نُبذ : وما رُذل شبيه بما نُبذ . فقالوا سُقاط الناس ورُذالهم وخُشارهم وبُشارهم وغُثاؤهم وقُماشهم وأُباشتهم .

القليل وما طُرح : وما قلّ شبيه بما طُرح « لتفاهته » . فقالوا : البُراض (للقليل من الماء والنبت) والبُلال (لما يبل الحلق) واللُواسة (للقمة أو أقل) .

البقية والقليل : والبقية أشبه شيء بما قلّ « لتفاهتها » أيضاً فجاءت على صيغته . فقالوا الثُمالة للبقية من الطعام والشراب . والبُضاضة والخُشافة كلاهما للقليل من المآء . والخُثارة لبقية اللبن . وقالوا التُلاوة لبقية الدَين . والغُلالة لبقية جري الفرس . والحشاشة لبقية الروح .

الدُقاق والمبالغة في الوصف : ومعلوم ان في ما تناثر مثل الدُقاق والتراب « معنى من الكثرة . فغلب على لسانهم الفُعال حيثما أرادوا « المبالغة في الوصف » . جعلوها أقوى من الفعِيل ، فقالوا : العَجيب والعُجاب ، والخبيث والخُباث ، واللئيم واللُؤام ، والصريح والصُراح ، والثقيل والثُقال والرذيل والرُذال ، والرحيق والرُحاق . (للصافي من الخمر) . وقالوا : العُقار والسُلاف ، والماء الفُرات والأُجاج والحُسان والكُثار ، والسيف الحُسام والجُراذ والهُذام (١) ، والجيش اللهام والجُراف ، والرجل الشُجاع والطُوال والجُسام ، والخبز الرُقاق .

---

(١) ان مَن أَلِف الصيغ العربية ترى لسانه يبدر سهواً الى كسر الُحسام والجُراذ واذا نبهته تراه كالمتردد يجد من نفسه تكلفاً في النطق بهما بالضم . وذلك لوقوعهما موقع الاسم الدال على معنى الآلة وهو بالكسر كالغِطاء والوِطاء واللِحاف والكِساء والرِداء والإزار والسِتار والخِمار والنِقاب والوِشاح والحِزام والخِطام والجِراب والإكاف والبِزال والعِمامة والحِباله وغيرها مما لا يحصى .

وقد نبّه اليازجي الى صيغة فِعال بالكسر للأسماء الدالة على معنى الآلة . ولعله انفرد بهذا التنبيه .

واما الحسام والجراذ فانهما بالضم على أصلهما لأنهما في الاصل صفة استغنوا بها عن ذكر الموصوف .

٦

النسبة الى فُعال للمبالغة : ولما عَلِق بصيغة فُعالٍ من معنى المبالغة قد « نسبوا اليها » قصد الاغراق في الوصف فقالوا : الأُنافيّ ، للعظيم الانف. والأُذانيّ ، للطويل الاذن . وقالوا: الاذن الشُرافيّة ، الطويلة القوف ، القائمة ، المشرفة . ورجل رُؤاسيّ ، عظيم الرأس . وعُضاضيّ ، عظيم العضد . وقُباعيّ ، عظيم الرأس أيضاً . ونُغاشيّ ، قصير جداً . وسُراطيّ ، كثير الأكل .

٧

فُعالِل : وربما « استغنوا عن ياء النسبة بحرف آخر » فصيروا فُعالاً فُعالِل . فكانت زيادة الحرف زيادة في المعنى ، فقالوا : العُذافِر ، للغليظ العُنُق . والجُراضم ، للعظيم البطن . والفُناخر ، للعظيم الأنف. والخُشارم ، للأنف العظيم . والبُراطم ، للغليظ الشفة ، ومثلها الحُثارم . والعُلابط ، للضخم العريض المنكبين . والجُراقس ، للضخم الشديد . والحُباتك ، للدميم القصير . وقالوا : بحر غُطامط ، متلاطم كثير الامواج . ولَيلٌ خُنابس ، شديد الظلمة . وثوب شُبارق ، مقطَّع . ورجل هُذارم ، كثير الكلام . وحمار صُلاصل ، شديد النهاق . وبعير هُزاهز ، شديد الصوت . وحمام هُداهد ، يهدهد في صوتِهِ . وحَدّاء قُراقر ، حسن الصوت .

فترى مما تقدم انهم في استعانتهم بالصيغة وزيادة الحروف للدلالة على الصور المتماثلة كمن يستعين في كلامه بأسارير وجهه واشارة يده وجهر صوته وخفضه ليدعم المعنى ويزيده وضوحاً .

ومع ما في فعالل من موازنة منتهى الجمع استعاروا لها ضم الفاء من فعال لما فيها أيضاً من معنى الكثرة ورائحة المبالغة .

الجماعات وما اليها : وما دام الفُعال في الغالب لمثل الدُّقاق والجُذاذ والحُطام وما يتصل بها كالفتات والرُّفات والرُّضاض والكُسار والغُبار والتُراب وهي قد جرت مثلاً في « الكثرة » كان بديهياً ان يجيئوا بالفعال « للجماعات » وشبهها .

فقالوا : الرُّكام ، للاشياء المتكتّلة . والكُداس ، لما كُدّس من الثلج . والغُثاء ، لما يحمله السيل من القمش وورق الشجر المجتمع على وجه الماء والسُّخام ، للسواد المجتمع على القدر . والعُباب ، ارتفاع الماء وكثرته . والجُفال ، للصوف الكثير . والضُّبارة ، للحزمة من الكتب . والكُباب للكثير من الإبل والغنم . والصُّوار ، للقطيع من البقر . والجُفال للجمع العظيم . وقالوا : غُمار الناس ، لجماعتهم ولفيفهم . والاناس للجماعة منهم أيضاً . ويدخل في الدلالة على جماعات مختلفة الذُّباب والرُّخال والفُرار والرُّباب والبُغاث والبُرام والقُراد والتُمام والجُثال .

٨

في الاعداد : ولا ريب أنهم حين عدلوا في « الاعداد » الى ثُلاث ورُباع انما عمدوا الى بناء « فعال » للدلالة على « اجتماع » ثلاثة ثلاثة ، وأربعة أربعة . ولذا تراهم اذا نسبوا الى هذه الاعداد نسبوا الى هذه الصيغة لا الى أصل العدد . فيقول علماء اللغة في ما كان مؤلفاً من حرفين

فأكثر: اللفظ الثُّنائي والرُّباعي والخماسي وهـلمَّ جرًّا، ولم يقولوا الاربعي والخمسي. والى هذا عمد ابو نواس في قوله:

قل لأُسماعيل ذي الخا ... لِ على الخدِّ السُّباعي
ولذي الهامةُ قد قضّ ... ت على مثل الكُراع
ولذي الثغر الذي يُط ... بِقُ بالشدقِ التُّساعي

ولم يفطن شارح الديوان الى المعنى فزعم في الخد السُّباعي انه تشبيه بنوع من الورد، وليست الابيات من النسيب في شيء. وإنما أراد ابو نواس جهامة الخلقة، حملاً على قولهم: الجمل السباعي، للطويل العظيم من الإبل. وأراد بالشدق التساعي انه تسعة أذرع، قياساً على مثل قولهم: ثوب سُباعي أي سبعة اذرع.

٩

التُّؤام: واذا تدبرت من هذه الصيغة لفظ «تُؤَام» مثلاً وجدتهُ بمثابة «ثُناء» لوقوعِهِ موقعه. في الكلام على ما جمع على غير القياس روى في درة الغواص قول الراجز:

قالت لنا ودمعها تُؤامُ ... كالدرِّ إذ أسلمه النظامُ
على الذين ارتحلوا السلامُ

وقد فسَّر بقوله: «دمعها قطرتين قطرتين». فعلى هـذا ليس التُّؤَام جمعاً كما قال. ومثله قول ذي الرُّمَّة:

ألا حييّا بالزُّرقِ دار مقام   لمّيٍ وان هاجت رجيعَ سقامي
كحلت بها انسانَ عيني فأسبلتْ   بمعتسِفٍ بينَ الجفـون توُامِ

وجاء في شرحه . « تُؤام تجري قطرتين قطرتين » . وقـد قرنه بوصف آخر مفرد وهو المعتسِف وأراد به الدمع .

وقال أوس بن غلفاء الهجيمي :

أعانَ على مِراسِ الحرب زَغْفٌ   مضاعفةٌ لهـا حَلَق تُؤامُ

قال شارح المفضليات : « أي نُسِجت حلقتين حلقتين » (٢٦٦ س ٧) وقس على ما مرّ حبلٌ تُؤام أي مزدوِج القوى . في حرف (نفق) من اللسان (٢٣٧) قول الشاعر :

وما أمُّ الردَينِ وإن أدلّت   بعالمةٍ بأخلاقِ الكرامِ
إذا الشيطانُ قصّعَ في قفاها   تنفّقْناهُ بالحبـل التُّؤامِ

قال شارح شواهد الكشاف : « أي الحبل المثني المحكّم اه. ومثله الضرب التُّؤام في قول ابي الطيّب :

وعنـدهمُ الجِفانُ مكلّلات   وشزرُ الطعنِ والضربُ التُّؤام

وقد جاء في الشرح : « التُّؤام جمع التَّوأم على غير القيـاس » وهو القول المشهور . غير أنه فسّر « بالضرب المزدوج » . ولا يحتمل غير هذا

مراعاةً لنظيره في البيت وهو قوله « الطعن الشَزر » وهو ما كان عن اليمين والشمال .

***

فالتُؤام في جميع ذلك ليس جمعاً بدليل تفسيره وما اقترن به . وإنما هو بمنزلة ما جاء من الاعداد على فُعال فانها تفيد الكثرة وليست تكسيراً . ولذا لم يمتنع وقوعه موقع الجمع . قال الحكَمي :

في رياضٍ ربعيّةٍ بكرَ النو ء عليها بمستهل الغمامِ
فتوشّت بكلّ نورٍ أنيقٍ من فُرادَى نباتهِ وتُؤامِ

***

فترى مماّ تقدّم أن التُؤام واخواتها التي عدّوها من شواذ الجمع إنما صاغتها كذلك أفواه العرب لِما طبعته ملكة اللغة في اذهانهم على بناء فُعال من معنى الكثرة وما يتصل بها حتى أصبح قالباً لها يندفع اليه لسان العربي بالسليقة .

وان الصيَغ العربية كما أسلفنا تشارك حروفها في الإيحاء بالمعاني كأنها ضروب من الألحان . ولا بدع . ألا ترى الى تحريك الاوتار ، وانه وإن لم يكن كلاماً فهو يثير في النفس من معاني الطرب والانقباض والنشاط والفتور والسرور والحزن وما أشبه مثل ما يثيره بليغ الكلام بل أشد .

وفي العربية وآدابها كثير من هذه الاسرار . انظر مثلاً الى أوزان الشعر وما في تقطيعه من مشابهة الايقاع وفاق ضروب الرقص وسير الخيل وغيرها .

وهذا من الأدلة أيضاً على قدم اللغة العربيـة لما فيها من المحاكاة للاحوال الطبيعية .

قلنا ان هناك ابنية كثيرة تجد فيها من وجوه البحث ما يمتلك الفكر ويشوق الى التدقيق لولا ما يزوي وجه المنقّب عنها في اسفار اللغة من معنى بذيء شغف به شراحها فهم أبداً يحومون حوله ويستخدمون ضروب المجاز للوصول اليه ولعلك لا تجد في مفرداتها للخبز والماء وبهما حياة الانسان جزءاً من الف من تلك الالفاظ التي أحالها الشراح الى ذلك المعنى .

وانظر بحقك عند صنيعهم هذا الى قول ذلك الشاعر الجاهلي الاسدي :

أحب الفتى ينفي الفواحشَ سمعُهُ
كأنّ به عن كل فاحشةٍ وَقرا
سليمُ دواعي الصدرِ لا باسطاً اذىً
ولا مانعاً خيراً ولا قائلاً هُجرا

جبران النحاس

الاسكندرية في ٣٠ اذار سنة ١٩٤٧